Middle East Journal of Humanities and Cultural Studies
Homepage: http://meijournals.com/ar/index.php/mejljs/index
ISSN: 2710-2238 (PRINT)
ISSN: 2788-4686 (ONLINE)
مجلة الشرق الأوسط
للعلوم الإنسانية والثقافية
MESR
منار الشرق للدراسات والأبحاث
Manar Elsharq for Studies & Research

الذاكرة الزمكانية في بناء الوعي الإبداعي: قراءة في نصوص مختارة من "كما الإعصار" (الميناء أنموذجًا) دراسة تحليليّة

سارة فاروق ضناوي

قسم اللّغة العربيّة –جامعة الجنان –طرابلس – لبنان

كليّة الآداب والعلوم الإنسانية

hajayainsaf.gmail.com

استلام البحث: 11-06-2026 مراجعة البحث : 11-07-2026 قبول البحث: 05-08-2026

الملخص

الهدف:

يهدف هذا المقال إلى تقصّي الذاكرة الزمكانية في نصوص مختارة للأديب جان توما، ونخص بالذكر الميناء الحبيبة، والكشف عن حضور أمكنة الطفولة وأزمنتها، وبيان أثرها في تشكيل وعيه الإبداعي. كما يسعى إلى دراسة الأساليب الفنيّة التي اعتمدها في استعادة المدينة وشخصياتها وتحويلها إلى صور أدبيّة نابضة بالحياة تحفظ الذاكرة من النسيان.

المنهجية:

تستند الدّراسة إلى منهج تحليليّ وصفيّ يساهم في تحليل النّصوص الأدبيّة، واستخراج الدلالات المرتبطة بالذاكرة المكانية والزمانية.

النتائج:

تكشف الدارسة الزمكانية في البناء الإبداعي عن أثر إيجابيّ في تشكيل هويّة الكاتب، وتهيئة تجربته الأدبيّة، إذ رسمت الذاكرة بنية النّص، وتميّز الأسلوب بكثافة الصّور الوصفيّة، واللّغة الوجدانية العاطفيّة، اللتين خلقتا رؤية لاستحضار الماضي ، إلّا أنّ النوستالجيا حاضرة في عباراته الدالة على الطفولة والمدينة، وأنّ المكان بات قيمة رمزيّة لفضاء التذكّر، والزّمن حيًّا داخل النّص. بالإضافة إلى تكرار كلمات مرتبطة بالمكان والزمان، إلا أنّه أتقن فعل الاسترجاع والانتقال من الحاضر إلى الماضي، ليحتمي من واقع لا يشبه طفولته ولا أحلامه.

الخلاصة: بعد هذه الدراسة، نخلص القول إنّ العمل الأدبي يفتح آفاقًا، ليستلهم من الواقع الإنساني سِيرًا تثير قريحة القرّاء، وتحفزهم على كتابة مذكراتهم

الكلمات المفتاحية: سبيل الماء- البحر –الشاطىء- الطفولة –الذكريات -الموج.

Abstract:

Objective:

This article explores the impact of the port city on the writer as a place and repository of childhood memories from a bygone era. It also examines his creative style and approach to portraying details of life in that setting.

Methodology:

The study uses a descriptive-analytical approach to analyze literary texts and extract meanings of spatial and temporal memory. It also employs a stylistic approach to examine linguistic characteristics of the text.

Results:

The study of time and place reveals their influence on shaping the writer's identity and enriching his literary experience. Memory forms the foundation of the text, while the style uses descriptive imagery and emotional language to revive the past. Nostalgia appears in expressions associated with childhood and the city. Place acquires symbolic value as a space of remembrance, while time remains alive within the narrative. Repeated words related to place and time highlight the writer's mastery of recollection and movement between present and past.

Conclusion:

The interaction between time and place remains an artistic element, preserving memory, expressing nostalgia, and shaping a literary identity rooted in childhood and the port city, and preserving its memories of childhood.

Keywords : Water Fountain – Sea – Shore – Childhood – Memories – Wave.

المقدمة

ممّا لاشك فيه أنّ الذّاكرة هي بداية الانطلاق من تهيئة الفكرة في الذّهن، ومن ثمّ الانتقال بها إلى صدارة التفكير الفعلي، وصولًا إلى الحديث عنها أو كتابتها على الورق، وهي من المراحل الأكثر حضورًا عند الإنسان في عالم تحيطه الترّهات والشّتات. لذا، يعدّها الكتّاب كنزًا فكريًّا لا ينضب بل يزوّدهم بالأحداث والمواقف المشوّقة لإعداد مؤلفاتهم الأدبيّة والفنّيّة، إضافة إلى مكتسباتهم المعرفيّة من الواقع المعاش من جهة و لتكون عنصرًا فعّالًا في بناء التّجربة الإنسانيّة والإبداعيّة من جهة أخرى.

ولأنّ الذّاكرة لا تولد عبثًا، بل تنبعث من صميم حياة البشر، ووتتعلّق برابطي الزّمان والمكان ، وتعدّ هي العروة الوثقى لبنية أيّ نصّ مكتوب. فوجدنا أن أدب توما ، قد اجتمعت فيه الصّفات الثّلاثة : الفنيّة والسّردية والإبداعية .

انطلاقًا ممّا تقدمنا به، اعتمدنا في دراستنا على كتاب "كما الإعصار" لإعادة فهم تجليّات الذاكرة في قسميها الزّماني والمكاني في أدب جان توما الذي بدوره هيّأ لمحطة جديدة في تاريخ الكتابة، ورصد دورها في البناء الإبداعي .

ومن هنا نطرح الإشكالية وقد تشعبت من مسألتين :

كيف تتجلى الذاكرة الزّمكانية المرتبطة بالطفولة ومدينة الميناء في النّصوص المختارة من كتاب «كما الإعصار»؟ وما أثرها في تشكيل هويّة جان توما ووعيه الإبداعي؟

تعريف الموضوع وأهميّته :

تنطلق هذه الدراسة من ثلاثة مفاهيم مترابطة هي: ذاكرة الزمان، والمكان، والبناء الإبداعي .

فتمثل ذاكرة الزمان استعادة الأديب جان توما لتجارب الطفولة والأحداث التي تركت أثرًا في تكوينه النفسيّ والفكريّ، حيث يستحضرها عبر رموز وعادات وصور تختزن ملامح الماضي وتكشف جانبًا من هويّته.

أما ذاكرة المكان فتتجلّى في حضور مدينة الميناء بوصفها فضاءً حاضنًا للذكريات، إذ تسهم معالمها وأحياؤها وتاريخها في بناء الإطار السّردي للنّصوص. والمصطلح المركّب "الزمكانية"[1] أشار إليه العالم باختين في قوله:" الترابط الداخلي الفنّي لعلاقات الزّمان والمكان المعبّر عنها في الأدب"(الرويلي والبازغي، 2000، 170).

أمّا البناء الإبداعي في كتاب "كما الإعصار" يقوم على تفاعل البعدين الزماني والمكاني، إذ يعيد الأديب تشكيل ذكرياته داخل النّص في صورة فنّيّة تتجاوز مجرّد الاسترجاع، وتحوّل الماضي إلى مادّة إبداعية تستحضر الأمكنة والأزمنة والشّخصيات المرتبطة بها. ومن هنا تظهر أهمّية الدراسة في الكشف عن دور الذاكرة الزمكانية في تجربة جان توما الأدبيّة، وبيان أثرها في تجسيد علاقته بالمكان والطفولة، فضلًا عن الكشف عن طرائق توظيفه لها في بناء نصّه الإبداعي.

[1] الزمكانية وهي" لفظ منحوت من كلمتي الزمان – المكان، وهو مصطلح يعود على أصله في اللاتينية المنحدر من جذرين لغويين هما chronos وتعني الزمن، و (topos) الدالّة على المكان، واجتماعهما يُعطي الكرونوتوب ".(chronotope) (الحسيني، 2023)

فرضية البحث

الذاكرة هي المحور الأساسي للنّصوص المختارة في كتاب كما الإعصار، منها انطلق الكاتب في وصف مدينته وأهلها وكان الحاضر جزءًا من استعادة تلك الذاكرة في مخيلته ونفسه التّائقة لزمن الطفولة .

المنهج

اعتمدت الدراسة على المنهج الوصفي التّحليلي لأنّه يساعد في وصف لحظات انقضت من حياة توما في مدينة الميناء. وذلك من خلال قراء الّنصوص المختارة وتحليلها وربطها بالدلالات النفسيّة والرّمزيّة.

أسباب الاختيار

اعتمدت هذه الدّراسة على الأسباب التالية :

أ– دراسة الذاكرة عامّة في الأدب، لأنّها عنصر فعّال في تشكيل الإبداع، إذ تعيد بناء الماضي في النّص برؤية فنيّة تحمل معانٍ معاصرة.

ب–أهميّة دراسة حقلا الزمان والمكان في الدراسات الحديثة، وخاصّة في أدب السّير ووصف حياتهم، ممّا يجعلهما رابطًا متينًا في فهم بنية النّص الإبداعي.

ج– دافع شخصي لاكتشاف نصوص الكتّاب، لما يقدّمه الأديب من غنى في استحضار صور المدينة (الميناء) وزمانها الحيّ من خلال نصوصه الزاخمة بالدلالات والمعاني التي تعكس شكل حياته وبيئته آنذاك.

أمّا عن اختيار مدينة الميناء، فلأنّها مسقط رأسه وموطنه الذي لايتنازل عنه، ويتحدّث عنه في اجتماعاته ومؤتمراته وأمسياته، بالإضافة إلى ما يحمله من رمزيّة مُركّبة، نحو: العبور، الانتظار، الحنين، الانفتاح، كي يكون فضاءً مناسبًا لدراسة تشكّل الوعي الإبداعي.

د–الحاجة إلى دراسات تجمع بين التّحليل الأدبي والبعد الدلالي، خاصة في ظلّ الاهتمام المتزايد بالعلاقة بين اللّغة والتّجربة الإنسانيّة في النّقد الحديث.

مواد البحث وطرائقه

اعتمدتُ في هذه الدراسة على مجموعة من الكتب والمراجع والدراسات والمقالات العلميّة التي تناولت موضوع الذاكرة وعلاقتها بالزّمان والمكان، إلى جانب الاستفادة من بعض النّصوص التي توضح حضور الذاكرة في ارتباط الإنسان بالأماكن والأحداث الماضية.

واتبع البحث المنهج الوصفي التحليلي، من خلال عرض مفهوم الذاكرة وبيان العلاقة بينها وبين الإطار الزمكاني في نصوص جان توما في كتاب كما الإعصار، ثم تحليل أثر الأماكن والأحداث الماضية في تكوين ذاكرة الإنسان واسترجاعها.

الإطار النظري

1-الذاكرة في اللّغة

من المتعارف عليه أنّ تفسير أيّ مصطلح يعود إلى جذر أساسيّ على صعيد الأفعال أو الأسماء، والذاكرة اشتقت من فعل "ذَكرَ"، والذِّكر هو القول بحدّ ذاته سواء ارتبط بزمن معيّن أو من مكتسبات الحاضر. وهذا ما آلت إليه المراجع اللّغويّة التراثيّة والحديثة وقد انطلقت من مادّة (ذ، ك،ر) .

الذّاكرة اسم يعود للجذر اللّغويّ (ذَ ك رَ)، وذكرَ الشّيء ذِكرًا أي حفظَهُ أو استحضره. ورد في معجم الوسيط : " قدرة النّفس على الاحتفاظ بالتّجارب السّابقة واستعادتها". (مصطفى، 1380هـ-1960م، ص 313)

وجاء في مقاييس اللّغة أنّ: "الذال والكاف والرّاء أصلٌ يدلّ على حضور الشّيء بالقلب أو باللّسان"، " ذكرتُ الشّيء، خلاف نسيته. ثمّ حمل عليه الذِّكر باللّسان".(بن زكريا، 1399هـ-1979 م، 358)، ويتقاطع هذا المعنى مع ما ورد في القاموس المحيط: "ذَكَرَ الشّيءَ يَذْكُرُه ذِكرًا: حفظه واستحضره". كما أكّدت العديد من المعاجم اللّغويّة هذا المعنى .

أضاف القرآن الكريم تعريفًا يُحتذى به من خلال الآية التالية: " وما تسألهم عليه من أجرٍ إن هو إلّا ذِكْرٌ للعالمين".(يوسف، الآية 42).

ومن حصيلة التّعريفات التي وصلنا إليها، لفتنا أنّ الذّاكرة هي: "قوّة عقليّة قادرة على الاحتفاظ بالأحداث الغابرة، وإمكانيّة إحضارها للمرء عند الاقتضاء". ومن ناحية أخرى:" تعرّف على أنّها الأساس في كلّ إنتاج مهما كان حظّه من الإبداع، ومنهم من يدّعي أنّها بما تحمله من أثقال الماضي والحاضر، تعطّل في الفنّان أصالته، وتشوّه ذاتيته، وتحوّل بين فطرته والابتكار الخلاق". (عبد النور ، 1979، 117)

وفي مراجع أخرى، يمكن الحديث عن أهمّيتها، حيث أنّ قيمةَ الذّاكرة الجيّدة مفهومٌ قلّما يُجادل فيه الباحثون. فإذا تأمّلنا ما يدور حولنا في حياتنا اليوميّة، لوجدنا أن قلّةً من المطلعين يستطيعون التّحدث بطلاقة ووضوح عن أي موضوع دون تحضير مسبق وترتيب أفكارهم، وهذا يُؤكّد قوّة الذاكرة. لذا، تُمنح البلاغة المتحدّث أو الكاتب ميزةً لا تُنكر على من يفتقرون إلى القدرة على التذكّر. (روبرت بايك الابن ووليام سي. بايك، فنون التذكر، ص 7).

ومن خلال أعمالهما، يُمكننا الآن أن نفهم أن هذا الفنّ يستخدم الأماكن (loci) والصّور الذهنيّة (imagines) لتذكير الخطيب بحججه. في مرحلة تحضيرية، يُرتب المتحدّث هذه الصور بالترتيب المطلوب داخل مبنى معروف. وعندما يُلقي خطبته، يبدأ بجولة تخيّليّة داخل المبنى، مُصادفًا الصّور التي تُذكره بالحجج. وبهذه الطريقة، يستطيع أن يتذكر حججه بثقة، وأن يسترجعها بالترتيب الصّحيح أثناء حديثه. (ميرتنز، 2018، مقدمة، ص. xiv) ويتمّ النظر إلى الأماكن والصّور على أنّها مكوّنات متأصّلة في الرّحلة الخياليّة إلى المعرفة. فالذّاكرة ليست استرجاعًا فقط، بل إعادة بناء، وارتباط بالهويّة والانتماء.

3-الذّاكرة المكانيّة

المكان هو الحجر الأساس في استدعاء الحكايا والتّجارب السّابقة، بل وإعادة تخيّل الشّخصيات في حركاتها وكلامها وتصرفاتها. والذّاكرة المكانية ليست إلّا عصفًا ذهنيًّا للمعلومات المخزّنة والمتعلّقة بالأماكن، كما تسهم في إعادة بناء الفضاء الحكائي داخل الوعي أو النّص. و يُقال أنّ المكان هو الموضع الثابت والمحسوس القابل للإدراك وهنا يذكر توما مكانًا حقيقيًّا معروفًا (الميناء) ويجسد فيها أحداث ذكرياته.

4-الذّاكرة الزمانيّة

الزمان لفظ مشتق من الأزمنة ويعني الإقامة"(، وهو ذاك الوقت أو تلك اللّحظة التي سجّلت الحدث أو الموقف بتاريخ محدّد، لذا يُقال:" إذا أردنا استعادة أمرًا ما من السّنوات السّابقة، نصبح واعيين بفعل خاص من نوعه، ننفصل به عن الحاضر لكي نضع أنفسنا أوّلًا في الماضي بوجه عام، ثمّ في منطقة معيّنة منه؛ وهو عمل يشبه إلى حدٍّ ما، تركيز عدسة الكاميرا. غير أن ذكرياتنا تظلّ في البداية افتراضية (كامنة)، ونحن فقط نُهيّئ أنفسنا لاستقبالها باتخاذ الوضع المناسب، ثم تظهر شيئًا فشيئًا كأنّها سحابة تتكاثف؛ فتنتقل من الحالة الافتراضية إلى الحالة الفعليّة، ومع ازدياد وضوح ملامحها واكتساب سطحها لونًا، تميل إلى محاكاة الإدراك لكنها تظلّ مرتبطة بالماضي في أعمق جذورها".((Bergson,1947,170)

يعدّ الزمن مكانة هامّة في الفن السّردي من جهة والدراسات النقدية في رواية الأحداث لأنه يشكل المحور الفعال في تحديد وقت انطلاق السرد ونهايته . (الزهراء ، 125،2022) .

5.الذّاكرة الفرديّة

الذّاكرة هي قدرة يمتلكها الإنسان، تساعده على الاحتفاظ بتجاربه السّابقة، وتسمح له باسترجاعها ساعة يشاء. وتتميّز بطابع ذاتي خاصّ بالفرد وخبراته. وأكّد المفكّر البريطاني Ulric Neisser هذا الكلام، معتبرًا إيّاها نسخةً معاد بناؤها، وقد تُعاد صياغة نسخة أخرى من الذكريات.(Neisser, 1994, p. 8) ...

يتوقف التذكّر على سبيل سرد الأفكار الماضية، ويبقى الموقف ومشاعره رهن اللّحظة الذي حصل فيها، قد يتلاشى الأثر، ولكن يحافظ على الأمر الذي حدث في زمان ومكان محدّدين.

محاور البحث :

أوّلًا : العلاقة بين كما الإعصار والذّاكرة

الإعصار مصدر الفعل أَعصرَ، أي أدرك وبلغ الشيء. والإعصار هو انتفاضة لفئة عمرية رحلت، وكما الإعصار كان بمثابة عصف ذهني للذاكرة، واستعادة ملامح التّجارب بصور مكتوبة تحيي الماضي وحكاياه. وهو الإبحار في الذّاكرة التّومانية، المبنية على حركة الموج ونسيم الذكريات الملموسة في كلماته وإحساسه، وشعلة الحنين الصّامدة.ولكن العودة

المؤقتة قد تكون مجتزأة من واقع حقيقي اختفى بعد الإنتهاء من مرحلة الطفولة. لذا، ترتبط الذاكرة بعنوان الكتاب ارتباطًا يوثّق رسالة جان توما ومصداقيته تجاه جمهوره وأدبه، وتقدم سيرة حيّة من بيئته.

ثانيًا: ذاكرة الطفولة

لا شكّ أنّ الطفولة هي فئة عمريّة غنيّة بأحداثها، وحاضرة بأفكارها، تنطلق من ذات الأديب، وتندمج مباشرة في النّص الأدبيّ. فأحلامه ومشاعره السّاكنة في وجدانه عن تجارب تلك الفترة هي نتيجة إعصار داخلي انفجر في ذاكرة الطفولة..

يعدُّ الكاتب جزءًا حقيقيًّا من صورة سبيل الماء، إذ كلّما تذكّر فعلًا بجانبه، عدّه إرثًا تاريخيًا لعالم الطفولة الذي لا يتكرّر، ويبقى ومضة أو خاطرة ملحّة للبوح عنها، وحنينه المتجسد بـ: حكايا طفولتنا" دليل استنكار لحياة الواقع، وما آل إليه العمر، وخوفه من تلاشي الطفولة يمسك بها في أدبه المكتوب.

كما وظّف صورًا فنيّة معبّرة، فجعل الماء كائنًا حيًا يروي "حكايات الطفولة"، وشبّه سقوط السّبيل بسقوط الأحلام، في صورة رمزيّة عميقة تعكس الانكسار والتّحول.

وقد حضرت ملامح الطفولة المختلفة التي شكّلت ثقافة المدينة آنذاك، والقيم التي كانت تجمعهم: استخدام كلمة عروس وهي إشارة إلى أطعمة الصّبية في الماضي، وعدّد أنواعها: الزيت والزعتر والزيتون، وذكر فوائدها من توسيع مدارك العقل وتفتيح الذّهن، والورق المغلّف بها من الصّحف، أي إنّه يمكنه قراءة الأخبار وتنمية معرفته. وأبرز ما يذكره بشوق هو العجوة التي كانوا يجمعونها ويحفظونها حتّى تظهر ثقوبها، ليتمكنوا من إدخال خيط الصّيد فيها وصناعة إسوارة للمعصم أو عقد للرّقبة. بالإضافة إلى قهوة عمّته وداد، وأرجوحة العيد التي تربطه بأسرته في اللّقاءات والمناسبات...

كما يعتمد في بعض نصّوصه (الرّصيف البحري) و(سبيل الماء) و(غزوات الطفولة)،(غربة في وطن)، على أسلوب وصفي سردي يبرز التفاصيل الدّقيقة، ويستحضر الزّمن الماضي والحاضر في آنٍ واحد، ممّا يمنح المكان بُعدًا تاريخيًّا وإنسانيًّا واسعًا. ويتضح من خلال ذلك أنّ الرّصيف ليس ثابتًا، بل هو نقطة عبور دائمة بين الأمس واليوم، وبين الرّحيل والوصول، وأنّ السّبيل عمر ولحظات بسيطة في مضمونها، وقيّمة في أثرها، وأنّ الغزوات في زمن العرائس والعجوات أهمّ من المطاعم والمأكولات السّريعة الغربية في واقعنا هذا.

وفي نص "رحبه"، عاد الكاتب إلى المنطقة بعد عمر طويل، بحثًا عن جارته التي اصطحبته إلى عكار وهو صغير، ويكمل طريقه سيرًا عى الأقدام، متقفيًا أثر نبع الماء الذي غسل فيه وجهه قديمًا، ولكنّه لم يجد ذكراه هناك قط بسبب التّغيير العمراني. أمّا التّلة الخضراء التي جمعت قصص الطفولة، وما عليها من أشجار مثمرة زالت بحلول الأبنية مكانها. رغم ذلك فإنّ إصراره على مواجهة التّغيير بنفسه، وإرادته في استعادة طفولته في هذا المكان، يوحي بقيمة هذه الأيّام الثمينة التي رحلت.(توما ، 2022 ، 111-112) .

بعيدًا عن المشاهد النصيّة التي أدى فيها الأديب دور الملتزم في الحفاظ على أصالة مدينته، وذكريات طفولته، وسبر أغوار شخصياتها على الصّعيد النفسي والاجتماعي، والقيم الإنسانية الخالدة في ثنايا فكره ووجدانه، لفتنا في اختياره صورًا ملتقطة من آثار المدينة، مثل: الجدار أو السّلم أو الشّاطئ يتخيّرون المحبّة، وينبذون التكلّف والعزلة .

كما أثار قضايا أخرى في رحلة مذكّرات مؤثّرة في وقعها، غنيّة في محتواها الأدبي، ذاتية حرّة، تلوج في كتابة ما يصول ويجول في خلد الكاتب من أسرار يدلي بها. ومنها نذكر: تبدّل الزمن والتّغيير الذي شمل التفكير والحياة برمّتها، وسيطرة التقنية على العقول، وانفصال الأفراد عن الأسر، وبالتالي ضعف العلاقات بسبب غلو النفوس وميلها للعزلة والاستقلالية من ناحية، وحكم المصالح الشخصية بالبعد من ناحية أخرى، والاهتمام بالقشور لا بالبذور؛ لأنّ الحياة زائلة .

في كلامه حكمة، يريد تعليم الأجيال أنّ الذكريات تراث لا ينقطع أثره إلّا إذا تلفه صاحبه، موسوعة تفتح لهم مجالات الكتابة وتقفي آثار الذات في كلّ وجوهها، ومخزنًا دافئًا لملامح الحنان والرّعاية من الأهل والمعارف. وأنّ الماضي هو جسر للحاضر، وملتقى الكلام.

2. الطفولة كمصدر للهوية

الطفولة هي مصدر ثابت في رسم ملامح ذاك الزّمن، والرّابط الوثيق بذكرى سبيل الماء، التي افتتح بها الأديب بوابة مرحلة عمرية غنية بالمغامرات والأحلام واللّعب، نحو: " كانت أيامنا مائيّة"،" أحلامنا الصّغيرة"، والحارات التي كانت مركزًا مباحًا لتفريغ طاقات الصّبية وضحكاتهم. هي محور انتمائه اللامحدود إلى مكان ولادته، ومحطة دقيقة من الزّمن، يروي فيها الأديب تفاصيلها، مع الاستدلال بالأمكنة: " الحارات، مدخل البوابة، سكة الحديد، البساتين، المسرح الباطونيّة ". ثمّ يتقهقر إلى الوراء ليتّذكر طفولته البريئة ويتصفّحها عن كثب. و يبقى ذاك الطفل يركض بين أزقة الميناء، يقف عند سبيل الماء، يتأمل الشّاطئ، يتأثر بحركة السّفن والموج، ولا يكترث لعمران حجب عنه الماء، أو أناس غيروا عاداته وفرحه بمسقط رأسه.

ثانيًا: استعادة الزمن الماضي

تتأرجح مدينة الميناء في أدب جان توما بين الحنين الأصيل إلى أوكسجينٍ نقيّ يعيد إلى الذاكرة أدراج الأمس، ويفتح فضاء المكان قديمًا على مصراعيه ليكون كتابًا مقروءًا في هذا الزمن؛ حيث يتحوّل سبيل الماء من عنصرٍ مادّيّ إلى رمزٍ للصّفاء والاستمراريّة، بما يحمله من دلالة الحياة المتدفّقة، في مقابل جمود الحاضر ومحدوديّته.

وتشكّل الحارات فضاءً للجماعة والتآلف، ما يجعل فقدانها خسارةً لبنية اجتماعية كاملة، لا مجرّد تغير عمرانيّ. وشوقه اللامتناهي لمناخ مليء بحركة الأطفال وشقاوتهم وصوت ضحكاتهم، ولكن بشكله الأثريّ البسيط، وطبيعة سكّانه، وشيطنة أطفاله.

في نص " الميناء هبة البحر"، كانت بركة المرج خطًا رئيسيًّا للعبور إلى شارع بور سعيد، أو مدخل البوابة، وكانت سكّة الحديد حلم كلّ طفل؛ إذا كان يتمنّى أنّ يقفز فوقها، ليصل إلى معرض طرابلس، ويتوه في تساؤلات استنكاريّة تشير إلى الاغتراب في تربته وبيئته :"كيف، بلمحة بصر، تبدّلت أحوال قرية الميناء باطونيًّا إلى مدينة الميناء؟" لأنّ المربّعات السّكنيّة معزولة عن بعضها بعضًا، وهذه الفكرة غير مستحبّة عند الأديب الذي اعتاد السّعة في الأرض، واقتراب البيوت،

وحبّ النّاس، واطمئنانهم بعضهم إلى بعض، فحال العزلة واختفاء الهمّ عند السّكان الجدد يشكّلان تغييرًا في ذاكرة المدينة وشكلها السّابق. (توما،43،2020)

وفي نصّ "الرّصيف البحري"، كان محطة لذاكرته المكانيّة، حيث كانت البيوت الحجريّة تطلّ على البحر، والماء المالح يدخل شقوق أبواب المنازل، ويذكر أماكن عدّة، منها: " خان التماثيلي" الذي كان يقصده الصّيادون لإصلاح نوافذهم، ويعدّد السّقالات التي كانت موجودة آنذاك:"سقالة علم الدين، سقالة بطش، سقالة كرم " (توما، 2020، ص196).

ويصوّر المشهد كيفيّة إبعاد الشّاطئ عن البيوت عند وصول الفرنسيين، بهدف استحداث مساحات لاستقبال البضائع، وحين بدأ العمران باستباحة البساتين في الميناء القديمة.(توما، 2020، ص195)

وفي نص" قطراني" يركّز الأديب على الشّكل الجديد الذي أصبحت عليه المدينة، من رفع الخشب سقوفًا داخليّة للبيوت، ويبقى الخشب مادّة رئيسة في صناعة الأثاث والزوارق والأبواب. وإن كان عهد تطور أو مرحلة انتقالية في المدينة من استعمال الباطون والحجر إلى الخشب، فإنّه لا يجدي نفعًا. فالكاتب يحيا ويعيش بمينائه القديم...(توما، 2020، ص47)
وفي نص " قلب المدينة "، في عام 1954 تمّ فتح شارع بور سعيد وفق تخطيط الفرنسيين للطرقات، وكان لهذه الخطوة نزعة قاسية عند جان إذ اخترقت بدورها قلب بساتين اللّيمون، وتعدّ رمزًا لأجمل لحظات طفولته. إلى جانب ذلك قصصًا يعيّن فيها، دلالة تسمية الكلمات المستخدمة آنذاك، ولا تزال حاضرة اليوم على الألسنة، نحو:" طالع " أي يسير في بساتين اللّيمون والعطر، أمّا " النّازل" كان يتأمّل العين وأسوار البساتين، ويشمّ روائح النّعناع والحبق، إلى جانب حركة الموج المتآلفة مع الهواء. (توما، 2020، 41)

وبالعودة إلى ذاكرة الأديب، كانت الميناء رسميًّا قريةً ومساحةً للراحة والأمان في ظلّ ساكنيها وبساطة عيشهم. وفي عام 1996، اتّخذ المجلس البلدي توصيةً باعتماد تسميتها مدينةً، وقد وثّق جان هذه المرحلة تاريخيًّا؛ لأنّها بصمة ونقش محفوران في ذكرياته، التي تأبى السّكوت، وتُقبل على مناطحة الواقع بكلّ تغيّراته؛ لأنّ العادة دستور لا يتغيّر بسهولة. والميناء عرفها ريفًا وملاذًا حافظًا لطفولته وأمانيه البسيطة، فالتخلّي عنها صعب المنال؛ لأنّ ذلك بمثابة اعتراف شخصيّ بانعتاقه عن ذلك الزمن وإحداثيّاته الزائلة.

وفي نص " زمن الاختصار والحِصار"، وإن كان حديث الولادة، لكنّ الحنين يباغت الأديب، ويحثّه على التذكّر، والبوح اللامحدود يجعله طوع أمره. وقد طرح مقولة لافتة بقوله: " البحر يلفظ مايرميه الإنسان فيه". وهنا تبرز صورة رمزية تشير إلى فساد الإنسان وإهماله للشّاطئ الأزرق، وبروز النّفايات على سطح الماء. وتراه يلجأ إلى التحسّر، خاصّة حين يقابل بتغيير ثقافة النّاس وتقليص الحوارات واللّقاءات الحضوريّة، واعتماد الواقع الافتراضي، وغياب روح المحبّة والفرح. كما أنّ التواصل عن بُعد خفّف وتيرة العلاقات بين الأفرد والجماعات، وأصبح كلّ شيء يعتمد على الرّموز والإشارات.

وفي قوله: "خرجتِ الحاراتُ من الحارات بعد مغادرة أبنائها"، " إحياء لأحلامه الصّامدة في مخيّلته، وحضور لواقع الحارات القديمة وشكلها زمن الطفولة. نلتمس من هذا الكلام شدّة الخسارة الغير المحسوسة للطفولة من ناحية، والمكان بصورته المحبّبة عند الكاتب من ناحية أخرى.

أدرك توما مؤخرًا أنّ الوقت قد مضى، بعد أنّ تغيّرت الحياة وشملت معها جميع مناحي الحياة وأحوالها، فلجأ إلى ذاكرته المكتظة بحكايا طفولته، وشكّلت جزءًا من شخصيّته، لذلك نجد أنّ الميناء، بوصفها ذاكرة مكانية حاضرة في ذهنه، يستعيد من خلالها المشهد الأكثر حبًّا إلى قلبه: "لِمَ كلّما مررْتُ أمامَ بيتِنَا العتيقِ في تلك الأزقةِ شعرْتُ بأنَّ العالَمَ يتّسعُ..."

انطلاقًا من هذه القراءة، نجد أنّ المكان كان حجر أساس للإبحار عبر الزّمن واستدعاء ذكرايات خلت، قد يظنّها الإنسان زالت، ولكنّ المكان إشارة حيّة لحضور الصّور الذّهنية القديمة، والحديث عنها كأنّها تحدث أمام عينيه. لا يزال بائع اللّيمون يمرّ في الأسواق، وسكّة الحديد باقية بصدئها ومقاومتها لحراراة الشّمس القاسية، والتّسمية باقية لبوابة الميناء، لتكون أثرًا صامدًا في مخيّلة الأديب، وعلامة على بقايا صور من لحظاته السّابقة. والشّراع وشارع بور سعيد هو مركز أساسي للحركة التجارية، بدءًا بالمتاجر الفخمة للأثاث والأدوات الصحيّة، والمحلات التّجاريّة لبيع الملابس والأحذية والألعاب المتنوعة للأطفال...وهكذا يتداخل الزمان والمكان في لغة الكاتب ومضمون الثريّ من قصص والسّير.

ثالثًا: الوعي الإبداعي المتشكّل من الذاكرة

تعدّ التّجارب الطفوليّة المحرّك الأساسي للسّرد، وعاملًا مهمًّا في تصوير أعظم لحظات الأديب التي يستعيدها بمحبّة دفينة للماضي، ويتعيّن على ذلك ذهنًا حاضرًا، وهويّة تدعو إلى حبّ الميناء والانتماء إليها. وجان لم ير في مينائه مجرّد شاطئ يلجأ إليه، بل وسيلة ليعظّم أدبه، ويبارك في صنعته الإنسانيّة، ويسكب فقدانه، وحنينه لصغره في تدوينة لا تتكرّر، تارّة في نصوص، وطورًا في شعر لا يتكرّر، وذلك لأنّه يقف على أعتاب الرّاحلين وأطلال المهاجرين، ويتوق إلى روح السّكينة السّائدة آنذاك .

إذا أردنا الإبداع، فعلينا الالتحاق بصدق العبارة، وجمال الأسلوب، وبساطة الكلام النّابع من قلبٍ يقدّس وطنه. وفي وصف اللّوحات الفنيّة، يخلق الحالة الشّعوريّة من خلال الخطوط والألوان؛ فينطق الحجر، ويؤنس البشر، ويخبر سرّ الحياة بأنّها ستعيد الإنسان إلى طفولته عندما يملّ من واقعه، وتعيد للمدينة أصالتها، وللطفولة أصداءها.

الخاتمة

بعد دراسة ماتعة لنصوص توما، ذاك المحترف في صناعة الذّكريات والإنسان المتواضع الذي يحنّ إلى الماضي الذي يشبهه، يبحر إلى الوراء، يغوص بين أوراق القِدم باحثًا عن ذاته البريئة وتربته الخصبة التي يتغنّى بها. ذاك الزّمن لن يعود ولو عايش الحزن.

لذلك أصبحت الذّاكرة جزءًا أساسيًا من المكان والزمان،إذ لا يمكن الفصال في ذلك، حيث أنّ وجود المدينة وشوارعها وشاطئها الأزرق والمرفأ الحيويّ الذي كان محطة للتّجارة، وإن تغيّرت المعالم، فهو علامة فارقة لجمال الماضي، فيستحضر الأديب اللّحظات الغابرة من ماضٍ يعتبره أهم من الماء والكلأ، لذا زمن الطفولة بشكل الميناء القديم حيّ في ذاكرته، وإن كان الحاضر مختلفًا. وهذه المرحلة تؤسس لهويته إذ ترتبط بها أحاسيس البراءة والاكتشاف والخوف والأمل.

أما أثر هذه الذاكرة في تشكيل رؤية الأديب للعالم، بدت كمرجعٍ للحكم على الواقع وفهمه، وأنشطة الطفولة التي ذكرها في نصوصه أسهمت في بناء نظرته إلى الإنسان والمجتمع والزّمن. حيث منح تجربته الأدبيّة بعدًا إنسانيًا يجمع بين الخاص والعام.

النتائج

في ختام بحثنا، نجد أنّ الطفولة ساهمت في بناء الذاكرة الزمكانية عند الأديب، ومدينة الميناء رغم تغيّر معالمها عبر الزمن ،لم تمحُ أجمل لحظات البراءة واللّعب، والإنسان حكاية عمر يبدأ من الولادة إلى الطفولة وسن الرشد وبعدها الشّباب، وأخيرًا الكهولة، وفي كلّ محطّة زمنيّة دقائق وساعات قضيت بلمح البصر، وقد وظّف الكاتب أدبه في تشكيل فضاء الحنين اللامتناهي، خاصّة لمن رحل عن هذه المدينة المائية وترك وراءه الأثر، بالإضافة إلى استعادة الذات الخالصة من التّكلّف و البسيطة في العيش، بالإضافة إلى المحبّة في التّعامل مع النّاس كأسرة واحدة، تحيها اللّقاءات والزّيارات والثقافات السّائدة أنذاك

التوصيات

بعد قراءة كمّ من النّصوص الأدبيّة التي خطّها الأديب جان توما توصّلنا إلى التّوصيات التالية:

1–دراسة أدب السّير لأنّه يعكس واقع المجتمع الإنسانيّ وثقافته.

2–دمج بين الأدب الإبداعي والحالة النفسية التي يوظفها الكاتب في التعبير عن سير الناس من جهة وسيره الخاصّة بعالم الطفولة من جهة أخرى .

المصادر والمراجع :

الكتب

1–بن زكريا، أبو الحسين أحمد. *مقاييس اللّغة*. دار الجيل، مكتبة الخانجي، (1399هـ–1979 م)، 358.

2– توما، جان عبدالله .*كما الإعصار*. منشورات منتدى شاعر الكورة الخضراء، بيروت–لبنان، ط1 ، 2022 ..

3–الجلالي، محمد حسين الحسيني. *تلخيص الذّهب في لسان العرب*. المؤسسة الحديثة للكتاب، لبنان، ط1 ، (2014)،113.

4–الرويلي، ميجان والبازغي، سعد: *دليل الناقد الأدبي*. مركز الثقافي العربي،بيروت، ط3، 2000

5- عبد النور، جبور. *المعجم الأدبيّ*. دار العلم للملايين، لبنان،1979، 117 .

6-عبيدة، مهدي: *جماليات المكان في ثلاثية حنا مينه*. ط1، دمشق: منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب ، 2011.

7- الفيروزبادي ،العلامة مجد الدين بن يعقوب. *القاموس المحيط*. دار الحديث، القاهرة، مطبعة، لبنان، (1429هـ-2008م)، 593.

8- مصطفى ، إبراهيم وآخرون .*المعجم الوسيط*، كلية دار العلوم، القاهرة، (1380هـ-1960م)، 113

المقالات العلمية

1- بشير، أمين: "البنية الزمكانية في روايتيّ "السنة" و " رحلة الزهراء" لمرتضى عبد السلام الحقيقي النيجيري: دراسة تحليلية. جامعة الأمير أبو بكر ميغا، ولاية كوغي، نيجيريا ،العدد1 ، السنة الثالثة، 2021، ص193-232

2- دحو، مامة: "بناء الزمن والمكان في الرواية العربية". مجلة الآداب والعلوم الإنسانية، العدد 10،لات، 14

3- فاطمة الزهراء، عطية: "حركية الزمان والمكان في رواية مائة عام من العزلة لغابريال غارسيا ماركيز".المجلة العربية في العلوم الإنسانية والاجتماعية ،مجلد 14، العدد4، 2022.

المواقع الإلكترونية

- الحسيني، صالح : *الزمكانية في رواية (ثالثة الأثافي) لسعود الصاعدي،2023، مجلة فرقد الإبداعية*، الرياض. *تاريخ الزيارة 25-8-2026 ورابط الموقع :* https://fargad.sa/?p=25563

المراجع الأجنبية

Livres

1-Bergson, H. *Matter and memory*. St. Michael's College. (1947)

3-Neisser, U., & Fivush, R. *The remembering self: Construction and accuracy in the self-narrative.* Cambridge University Press. (1994)

4-Tulving, E.Elements of episodic memory. Oxford University Press. (1983).

Scientific Articles

Manolescu, D. *Memory, imagination, and knowledge*. Journal of Critical Studies in Language and Literature. Global Talent Academy.